

elfacrak@gmail.com تقديم بعد موضوع العدالة من الموضوعات الفكرية الحديثة التي خاص فيها الفكر العربي في مصرنا بجميع توجهاته تأثراً بالفكر الغربي الحاضر ، سواء بتقليد أسئلته وجواباته كما في هناك في الحضارة الغربية أو بمحاولة استحداث أجوبة للخطف. باختلاف المدارس العلمية والاتجاهات الفكرية والإيديولوجية في المشرق والمغرب لتمنحت الرؤى والمواقف بتعدد المرجعيات والمشارب الفكرية، فهناك لائحة من الاجتهادات التهرية في الموضوع بالمشرق والمغرب، وخاصة كتابي "سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي الحداثي الغربية" و"روح العدالة، المدخل في تأسيس الحمالة الإسلامية، فما في معالم الجواب من سؤال الحداثة والتحديث عند طه عبد الرحمان وخاصة في مجتمع يوصف بأنه "مجتمع تقليدي ؟ ومن خلال ذلك كيف قرأ طه عبد الرحمن الحداثة الغربية ؟ ونمط سلوك في الواقع اليومي، أو قل هي أخلاق شرعية للتغيير، متخلية عن القديم. حركة كاسحة مكانها وذات القدرة خارقة على الانتشار أفقياً وعمودياً، ومسلسل مفتوح على جميع الاحتمالات وممتد إلى المستقبل اللامتعين، لا يتحكم في ذاته ولا يحدد ما يريد، يحو السحر عن العالم ويمارس سحراً جديداً، يخفي المقاصد الإلهية عن الإنسان وبؤله الإنسان في نفس الوقت، ومنتصر بعقله على كل الإكراهات، فإن طه عبد الرحمن يرى بأن التهويل من هذا المفهوم وتصنيمه أو توليته لا يفيد في تحديد دلالاته، مما يستدعي الانتقال من هول قداسه المزعومة أو قل من "سحرة" إلى التمييز بين روحه التي في تعطى كوني مشترك بين جميع الأمم معاني الحداثة وبين تطبيقاته النسبية والمتعددة أواني الحداثة التي تختلف باختلاف المجالات التداولية، مما يفيد أن هناك اختلافاً بين الروح المشتركة والمتاحة للجميع مهما استوفيت شروطها العمرانية والتاريخية، وبين الواقع التنزيلي المتعدد والمتجدد، أي أن الاستواء في الروح لا يفيد الاستواء في التطبيق. بناء على ما سبق انصب النقد الفلسفي للحداثة عند طه عبد الرحمن على نقد التقليد العربي لنمط الحضارة الغربية. وما استقبح ذلك من وقوع في جملة من الشبه تمس موضوعات الهوية والعقيدة والعقل وغيرها، ليقدم إسهاماً دقيقاً في معالجة جملة من الإشكاليات النظرية والعملية التي تطرحها الكتابات المستشكلة الموضوعية الحداثة وما بعد الحداثة. وهو إسهام نقدي على وجه الخصوص، يصدر من مفكر إسلامي عربي خبير بقضايا الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة، وهو ينتصر بوضوح في نفس الوقت للمرجعية الإسلامية العربية التي تختزن الهوية والذاكرة والإمكانات. من المسلمات الفكرية التي انطلق منها طه عبد الرحمن في نقده الواقع الحداثي الغربية وبالتالي نقد دعوى الانعتاق عبر تقليدها الذكرا مسلمة الهوية الأخلاقية للإنسان ومقتضاها أنه لا إنسان بغير أخلاق ، فإذا سقطت أخلاقه سقطت إنسانيته، في تراتب الناس بتراتب أخلاقهم، على غرار مذهب ابن خلدون القائل: "إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه، فقد فسدتا حمد القرالة إنسانيته وصار مسحاً على الحقيقة"، بحيث تزداد إنسانية الإنسان بازدياد تخلفه وتنقص بنقصان تخلفه، ناهيك من تلك التصورات التي تربط الأخلاق بالعقل إيمانويل كانط)، أو تقدم الأخلاق على الدين (دافيد هيوم)، متجاهلة الهوية الدينية الإنسان بوصفه الكائن الحي للمتمدين " سواء اعترف بتدينه أو ادعى الانسلاخ عنه متستراً عما يوصله به. وبناء على ما سبق يجدر بكل أمة أن تصنع حداثها من داخلها ولا تستوردها من خارجها، وبالتالي تقال بلا حداث ما دام استيراد التطبيقات لا ينتج وطبعاً أيضاً في وضع الآخرين، يقول مله لا حداث إلا بصورها من الداخل، لا بورودها من الخارج، ولا حمالة الامع وجود الإبداع، لا مع وجود الاتباع، فلا تكون الحداثة إلا ممارسة داخلية مبدعة. أما الذين يدعون صفة الكونية للقيم الغربية الحديثة فهم يجهلون في نظر طه خصوصية التطبيق الغربي في مقابل عالمية الأخلاق الإسلامية ذات الأبعاد المؤسسة وفي سبيل النقد المزدوج التقليديين في كتابه "روح الحداثة ركز جهده على وجوه وقوع هذا التقليد عند المدي الحداثي، أو قل مقلدة الحداثة الغربية، ذلك أن تسجيل الإعجاب بالحداثة الغربية المعاصرة وترجمة النصوص الفكرية والفلسفية والثقافية التي تحمل مضمونا حداثياً، أو تبقى مذهباً فكرياً يدعي الحداثة لا يفيد الأمة في تقريب مضمون الحداثة وتطبيق روحها في الواقع الحديث والمتغير، بقدر ما يوقعها في تقليد جديد من غير أن يخرجها من التقليد القديم، أي هو تغيير بين تقليد وتقليد. ناهيك عن كونه استجابة لما يريده الغرب ويسعى جاهداً في ترسيخه وهو تذويب الثقافات الأخرى ودمجها في الثقافة المعيارية الغالبة. يقول روجيه غارودي بهذا الصدد: " يطمع الغرب بأن ينصب نفسه قاضياً على جميع الحضارات الأخرى معتبراً أن المسار الذي اتبعه هو مثالي وهو الوحيد الممكن، وبأن يقرر انطلاقاً من هذه النظرة بأن شعباً ما أو حضارة أو علماً أو تقنية هي "بدائية". نافية". "متخلفة" وفقاً للنقطة التي توضع فيها على هذا المسار، أعني وفق شيئا القليل أو الكثير بنا نحن الغرب. تستنتج أن هذه الحداثة المتصلة بالدين أو "الديانية" تتأسس على الأخلاق الإسلامية بوصفها أخلاق عالمية وحركية وعميقة مؤسسة على الميثاق الإلهي الأول الذي أخذه الشارع الأسمى من العقلاء وعقولهم وهو الوارد في القرآن الكريم "وَأَخْذُ رِبْكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (الأعراف (172)، مقابل الأخلاق الناصوتية المادية والسطحية التي تولدت بفعل سيطرة الأنموذج

الغربي للحضارة وما يتصل به من تفوق تقني وعسكري وثقافي يتم توظيفه في الإقراء حتى يتحقق الافتتان به مقابل تشجيع ودعم "القدامة" المتمثلة في التقليد. وتتضاعف الفتنة إذا انضافت إلى ما سبقه المحاصرة الذاتية والتي تتمثل في وقوع الفكر الإسلامي المعاصر في آفة "التسييس" المنسلخ من الأخلاق بدل "التأنيس" تخلص هنا في أن طه عبد الرحمن ينتقد الحداثة الغربية في شكلها لا في روحها، وهو يعي أن الأشكال لا يمكن أن تتطابق حتى ولو يذل الناس وسعهم من أجل ذلك، مثلما لا يفوته أنه لا يمكن خلق حداثة خاصة بنا، تصدر منا وترجع إلينا من غير أن تستفيد منها غيرنا، كما يؤكد ذلك العروي أيضا بقوله إن خلق ثقافة منا وإلينا وحدنا، هو في الواقع خلق فلكلور جديد". وبين منه الذي يعتبر المتلبس بها. أن علاقتنا بالتراث لا تنفك حتى ولو حاولنا القطع مع تراثنا فإننا سترتمي في تراث غيرنا. ماضي مبيت وماضي حي الأول هو ماضي الوقائع والثاني هو ماضي القيم، والعبرة في القيم عموما بإنتاجها لا يقدمها أو حدوثها. وللدكتور سعيد خالد الحسن تنبيه دقيق في الموضوع في إطار مفهوم المدرجات الجماعية والتي تجاوزت عبر تاريخها الطويل إلى يقول: " للمقصود بتجديد المحركات ليس العمل على تجاوزها أو إحداث الطليعة معها أو محاولة تغييرها، بل إحيائها عبر العودة إلى الخبرة المعيارية الجماعة المجتمعية. 2. الحداثة بين وحدة الروح وتعددية الصورة: عمل مله عبد الرحمن في كتابه "روح الحداثة على إعداد جواب مخصوص على سؤال مخصوص، حيث السؤال هو: هل الحداثة معمل كولي موحد ووحيد أم أنه إنجاز مخصوص لكل أمة من الأمم ؟ هل توجد حداثة دون التعلق بالمفلي الذي يحى باستمرار ؟ ليست العدالة الأوربية رجوها وتجلوها في الماضي من أجل المستقبل؟ إنتاجا وإبداعا، وهي كيست سوى ظاهرة تاريخية عارضة والظواهر كما تأتي تفل، أما همة الإنسان فهي حقيقة باقية ببقائه . حدثت الحداثة عبر مراحل زمنية وأحداث فعلية ومنطق لتاريخ لا يحترم إرادة الإنسان لتظهر غيرها بعدها وتخضع لنفس السيرة، وهكذا دواليك، وإذا كانت الحداثة الغربية المعاصرة قد ظهرت متصلة بالعقلانية والليبرالية، فإنه بإمكان الفكر الإسلامي العربي أن يصنع جوابه وينتج حد الله بإبداعه. بدءا من إبداع مفاهيمه وتجديد آليات تفكيره، وتقليد المتأخرين الذين يسقطون مفاهيم غيرهم (الغرب) على مفاهيمهم، ويتبعون ما أبدعه الغرب من غير تحصيل الأسباب التي جعلهم يبدعون ما أبدعوه. إن الحداثة التي يبشر بها الدكتور طه في حداثته داخلية بروح أخلاقية بديلة وتجليات إيمانية جديدة تعيد الاعتبار للمعنى والغاية من وجود الإنسان وسعيه المتعدد في مجالات لا عد لها، فهي حداثته ذات توجه معنوي بديلة من الحداثة ذات التوجه المادي التي يعرفها المجتمع الغربي: فالرأي الذي ترتضيه هو أن الحداثة عبارة عن إمكانات متعددة، وليست كما رسخ في الألمان، مع العلم أن حضارة هذه الحداثة في "حضارة ناقصة عقلا وظالمة قولاً ومتأزمة معرفة ومتسلطة تقنية"، والدليل على إمكان تعدد الشكل مع الحفاظ على وحدة الروح هو تعدد التطبيقات في الغرب نفسه، فلا تجد التطابق في التجارب رغم ما يوقفنا من قواسم مشتركة للحضارة في مجموعها، أي أن المشهد الحداثي الغربي ليس بالتجانس المظنون، بل فيه من التنوع ما يجوز معه الكلام عن حداثات كثيرة، لا حداثة واحدة ويمكن عد هذا التكاثر بعدة اعتبارات منها الاعتبار القطري الفرنسية، المانية والاعتبار المجالي " (اقتصادية، سياسية . رغم الاشتراك في التاريخ والمصير، غير أن جواز الاختلاف في الشكل مع وحدة التاريخ والمصير لا يمنع سومن باب أولى من الاختلاف في التطبيق مع الاختلاف في التاريخ والمصير. وكما أن هناك حداثة غير إسلامية واقعة أفلا يمكن بناء حداثة إسلامية متوقعة؟ على خلاف بعض رواد الفكر العربي المعاصر (أركون العروي الجابري. يرى طه عبد الرحمن أن الانخراط في كونه الحداثة" وترديد خطاب الحداثة وتعريب نصوص مفكري الحداثة والزعم بأن النموذج الغربي الحديث يتصف بالحمية والكونية والكمال لا يتقدم بالمجتمع العربي والإسلامي خطوة في طريق الحداثة المطلوبة المرغوبة ما لم يؤدي إلى عكس ذلك فيوقع التسلط والتبعية والاستعباد لذلك ينبغي التمييز في الحداثة بين الروح والصورة الواقعية، فتتمسك بالروح وتصنع التطبيق بما يوازي أصول مجالنا التداولي الذي هو جملة المبادئ والقواعد العامة التي تضبط العقيدة واللغة والمعرفة والتي يشترك في التسليم والعمل بها كل المنتسبين إلى المجتمع. أ.

"روح الحداثة، وفي روح عالمية وإنسانية ليست من صنع المجتمع الغربي الخاص، حتى كأنه أنشأها من عدم، وإنما هي من صنع المجتمع الإنساني في مختلف أطواره، إذ أن أسبابها تمتد بعيدا في التاريخ الإنساني الطويل ثم لا يبعد أن تكون مبادئ هذا الروح أو بعضها قد تحققت في مجتمعات ماضية بوجوه تختلف من وجود تحققها في للمجتمع الغربي الحاضر؛ كما لا يبعد أن يبقى في المكنها أن تتحقق بوجوه أخرى في مجتمعات أخرى تلوح في أفق مستقبل الإنسانية . فهذه الدعوى إذن تؤكد استواء الإنسانية في الانتساب إلى التاريخ وبالتالي إلى روح الصداقة باعتبارها ولها البشرية التي تستفيد من تاريخها التشييد عمرانها، تحمل الرخاء المشترك بين الأمم الطالبية الشروط وهو بطله. به واقع الحداثة : وهو الإنجاز المحلي والخاص الذي تصدمه كل أمة في إطار مقومات مجالها التداولي"، وتسعى إلى تصاويره وتجويده، أما التطبيق الغربي وهو واحد من التطبيقات الواقعة في زمانا، فكيف

يمكن تطبيق هذه الروح في والعنا؟ وما العمل للمستفيد من حادثة الغرب؟ أليس من الحق العربي في الاختلاف الفكري تحديث تفكيرهم ونمط حياتهم؟ ثم أليس من الحق الإسلامي الإقرار على إبداع حادثة إسلامية تخرج الأمة من سجن التقليد والاستتباع إلى قضاء التجديد والإبداع؟ رغم نقده الحادثة قطه لا يدعو إلى الانكفاء على الذات والارتداد إلى الماضي ولا الانغلاق من الغير ونكران الخير، مع العلم أن الواقع العربي والإسلامي الذي نعيشه اليوم لا هو أبعد حداثته الخاصة ولا هو نقل الحادثة الغربية في شكلها الحاضر، يقول طلال "واقعا الحالي ليس تطبيقا الروح الحادثة، وإنما يدعو إلى الانتقال من تقليد حادثة في إنتاج حادثة، أي من الانتقال من تطبيق لتطبيق آخر أروح الحادثة، ولا يمكن أن نسعي ذلك واقعا حداثيا، أو حادثة، وإنما يمكن أن يوصف يشبه الحادثة أو مسخ للحادثة " مادام لا قبل له بإخراجنا من حالة التخلف التي نعيش فيها ولا تكاد تبرحها إلا من حيث تريد إليها أكثر. يدعو له إلى استصناع حادثة تتخلص من تقليد إبداع الآخرين وتسهم بإبداعها وتميزها في إنشاء كونية إيمانية تعارفية متواصلة عبر تغليب العقل والإرادة والروح الملكوتية في عالم مستغرق بعقل الملك التعاوني والأداتي والتفاضلي، في الوقت الذي اعتبر فيه بعض المفكرين العرب أن التقليد وحده يساعد على الخلاص من الموت التاريخي. من هنا جاء مشروع روح الحادثة وسؤال الأخلاق كسؤال وجواب يستدعي لفت الانتباه إلى ضرورة تفسير التواصل بين خصوصية الأمة والواقع الكوني " . أي أنه بإمكان الأمة الإسلامية العربية أن تظفر بتطبيق يخصها لروح الحادثة يكون إضافة نوعية من حيث المرجعية والمقصدية والمعنوية ما يجعلها " حادثة عالمية تناسب تطلعات الإنسان الحديث واتساع أفاقه. هذه الحادثة المطلوبة لا تحصل عبر منهج القطيعة مع التراث، ولا يمكن أن تنطلق من ذاتها كما ما لبث يؤكد محمد أركون إذ يقول: "الانطلاق من نقطة الحادثة وليس من نقطة الماضي أو التراث ينبغي علينا تهذيب نفوسنا وتدريبها على أن تتصرف بطريقة متسامحة ومنفتحة ومرنة، وأن تقبل شيئا أساسيا يعتبر من منجزات الحادثة العقلية ألا وهو نسبية الحقيقة، الأمر الذي يتعارض جذريا مع مطلق الحقيقة، فالحال إذن أن أركون لا يرى في الدين والتراث أو ما يسميه بـ "الحدث القرآني" و "الحدث الإسلامي * إمكانية للنهوض والتحديث، وإن كان يقر بأن لحظة ظهور الإسلام كانت لحظة حادثة ! لأنه كان محطة تغيير وتحريك لعجلة التاريخ، والحادثة تعلي بث الحيوية في التاريخ، أما اليوم فقد أصبح الإسلام نوعا من التراث ومن التقليد، ومن تراكم المعارف والمواقف الثقافية المكررة، وبالتالي لا يمكن لأي شخص عاقل أن يقول بأن الإسلام يمثل حاليا الحادثة .